Al-Dirasat Al-Islamiyyah (Islamabad) 25:4 (1990

مصادر التربية الاسلامية

عبدالرحمن صالح عبدالله

الحمدلله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين وبعد : فانّ محتوى المنهاج الذى يدرس فى المدارس والمعاهد التربوية يختلف باختلاف النظريات التربوية. فنظرية أفلاطون التربوية ـ على سبيل المثال ـ أفصَتْ من المنهاج كل ما يمت بصلة للتربية المهنية لأن صاحب هذه النظرية يؤمن بأن الانسان الحرّ لايحتاج الى المهن المختلفة وأن العبيد هم الذين تسند اليهم الأعمال اليدوية . وأما التربية الاسلامية فانها تؤكد على أهمية المهن وتدخل فى محتوى المنهاج العلوم الكونية والاجتماعية والنفسية علاوة على القرآن الكريم والحديث وعلوم الشريعة والعقيدة التى تشكل حجر الزاوية فى كل منهاج يهدف الى تنشئة الانسان المؤمن .

وقد غفل المسلمون فى القرون الأخيرة عن مواكبة التطور فى العلوم الكونية والاجتماعية وحصروا اهتمامهم فى العلوم الشرعية . لذا فان تلك العلوم الكونية والاجتماعية تراجعت الى الصفوف الخلفية

© Dr Muhammad Hamidullah Library, IIU, Islamabad. http://iri.iiu.edu.pk/

ووضعتها بعض المؤسسات التعليمية فى البلاد الاسلامية فى زاوية النسيان . وعلى النقيض من ذلك تمامايَظُنّ بعض الافراد حالياً أنّ التربية الاسلامية محصورة فى موضوعات الفقه والتوحيد وأنه لا دخل للاسلام فى العلوم الأُخرى . وقد أعطى هؤلاء مكانة الصدارة فى محتوى المنهاج للعلوم الحديثة . ولا ريب فى انّ كلا من هاتين النظرتين غير صائبة وأنّ عوامل عديدة أدت الى ظهورها . وتقوم الدراسة الحالية على مسلمة مفادها أنّ الجهل بطبيعة المصادر التى تنهل منها التربية الاسلامية هو أحد العوامل التى أدت الى ظهور كل من النظرتين المتطرفتين السابقتين . لذا يؤمل أن تساعد الدراسة الحالية على تصويب هذا الخطأ المتعلق بطبيعة المحتوى فى المنهاج التربوى الاسلامى .

من الامور المسلم بها ان القرآن الكريم أهم مصدر للتربية الاسلامية ، فهو الذى يتقدم على سائر المصادر الاخرى . وقد عرف القرآن الكريم بأنه :

,,الكلام المعجز المنزّل على النبى صلى الله عليه وسلم المكتوب فى المصاحف المنقول عنه بالتواتر المتعبد بتلاوته،، (١).

وقد اختار الله سبحانه وتعالى لوحيه أسماء جليلة عديدة أكثرها شهرة اسمان هما : القرآن والكتاب . وتسمية الوحى بالكتاب اشارة الى جمعه فى السطور ، أمّا التسمية بالقرآن فإشارة الى حفظه فى الصدور . ويمتاز القرآن الكريم عن سائر الكتب السماوية بأمور عديدة منها (٢) :

١ ـ القرآن الكريم يخاطب البشرية جمعاء أما الكتب الأخرى فاختصت أقواما معينين دون سواهم .

٢ ـ وصل الينا القرآن الكريم سالما خاليا من التحريف .

٣ ـ القرآن الكريم ينظم جميع مظاهر الحياة الانسانية فى حين أن الكتب الأخرى كانت تتناول بعض هذه الجوانب .

٤ ـ كانت الكتب السماوية محددة بفترة زمنية معينة ، فجاء القرآن الكريم ناسخا لها جميعا وهو صالح لكافة الأزمنة لانه فى غاية الكمال .

انّ الاقرار بكون القرآن الكريم المصدر الأساسى الاول للتربية الاسلامية يستتبع أنْ تتحول آياته الى سلوك واقعى . وليس من الحكمة فى شىء ان يكون القرآن الكريم قرآن تلاوة فى المناسبات أو تتحول دراسته الى ترف عقلى أو رياضة فكرية . فالتطبيق العملى لما جاء فى الآيات القرآنية هو ما تصبو اليه التربية الاسلامية . وعندما تسير الأقطار الاسلامية على هذا النحو فان العقبات التى تعترض سبيل وحدتها تختفى لأن القرآن الكريم يحفظ للامة الاسلامية وحدتها الفكرية والثقافية . والتربية التى تتخذ القرآن الكريم مصدرها الأساسى تسترشد بما جاء فيه من مبادئ تربوية . فالقرآن الكريم يبين لنا طبيعة الانسان ويحدد الهدف الاسمى لهذا المخلوق الذى يفضله على سائر مخلوقاته . كما أن القرآن الكريم يحدد تحديدا واضحا علاقة الانسان بالكون الذى يحيط به ، اذ ان كل ما فى الكون مسخر لخدمة الانسان . والقرآن الكريم يرشد الانسان الى الطريقة المثلى التى يكتسب بها المعرفة . فالله سبحانه وتعالى يحث الانسان على التفكير فى كل ما يحيط به من مخلوقات مثل الكواكب والنجوم والاشجار والمياه والرياح والكائنات الحية الأخرى والليل والنهار . ومن الآيات التى تحث الانسان على التفكير فى الكون قوله تعالى :

,,ان فى خلق السمٰوات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لاولى الالباب الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السمٰوات والأرض ربّنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار ،، (٣).

والانسان المسلم لا يكتفى بالنظر الى ما يحيط به من مخلوقات ، بل انه يعتبرها برهانا اكيدا على قدرة الله فيسبحه ويستغفره . فالقرآن الكريم يحثنا على أن نبدأ العلم والمعرفة بالنظر فيما يحيط بنا فى عالم الشهادة ، ثم يطالبنا بعد ذلك بالانتقال الى عالم الغيب والايمان بالله . وهذه النظرية فى المعرفة تختلف عن نظرية الفلاسفة القدامى الذين كانوا يبدأون فكرهم بالعالم غير المحسوس ، كما انها تختلف عن نظرية المعرفة التى جاءت بها التربية الوضعية الغربية ، تلك النظرية التى لا تؤمن الا بما تقع عليه الحواس .

واضافة الى كل ما تقدم ، فان القرآن الكريم قد تضمن طرقا متعددة فى التربية منها القصة والمثال والقدوة وغير ذلك . كما انه جاء بعدة مبادئ تنير السبيل أمام كل من يتصدى لعملية التقويم . فالقرآن الكريم يحث على مطابقة القول العمل وهذا يعنى أنّ على من يتولى عملية التقويم الاهتمام بالسلوك العملى وعدم الاكتفاء بقياس التحصيل اللفظى . والقرآن الكريم يحث على البعد عن الاهواء الشخصية واتباع الظن ويطالب بالدليل وبالتريث قبل اصدار الأحكام . وهذه الاخلاق الفاضلة لا غنى عنها لكل من يسند اليه مهمة تقويم هذا الجانب التربوى أو ذاك .

انّ التربية التى تهتم بتنشئة الانسان وتربيته تحتاج الى مجموعة من المبادئ التى تحدد لها الاهداف والوسائل . وهذه المبادئ موجودة فى القرآن الكريم . ثم ان الطريقة الفريدة التى جُمع بها القرآن الكريم تزود التربويين بمنهجية فى البحث تقوم على الأسس التالية :

١ ـ حسن الاختيار : لقد اختار أبو بكر الصديق رضى الله عنه زيد بن ثابت لمهمة جمع القرآن لأنه موسوم بالأمانة والخبرة السابقة التى اكتسبها عندما كان كاتبا للوحى عند رسول الله صلى الله عليه وسلم .

٢ ـ تحمل المسؤلية : عندما كلف زيد بن ثابت بهذه المهمة شعر بثقل المسئوليـة ، ويظهر هذا من قوله رضى الله عنه :

,,فوالله لو كلفونى نقل جبل من الجبال ما كان أثقل علىّ مما أمرونى به من جمع القرآن ،، (٤).

٣ ـ تتبع المعلـومات من مصادرها الأساسية : لقد تتبع زيد بن ثابت القرآن من مصادره العديدة التى كتب عليها وهى جريد النخل (العسب) والحجارة الرقيقة (اللخف) ومن صدور الرجال . فجمع القرآن اعتمد على مصدر ين أساسين هما صدور الرجال وما كان مكتوباً فى عهد الرسول عليه السلام . والباحث التربوى الذى يقتدى بهذا الصحابى الجليل لا ينتقى مصادره التى يرجع اليها فيهمل هذا المصدر أو ذاك بل يتقصّى الموضـوع من سائـر المصادر المتوفرة لديه .

٤ ـ التأكد من صحة ما يجده فى المصادر : كان زيد يستوثق من المصدر المكتوب ولا يقبل الا ما كتب زمن الرسول عليه السلام. و لذلك لم يكن يقبل شيئا من المكتوب حتى يشهد شاهدان أنه كتب امام الرسول عليه السلام (٥) . وهذه المطالبة بالشهود مع كون زيد رضى الله عنه من حفظة القـرآن دلالة أكيـدة علـى ضرورة التثبت من صحة الآيات قبل قبولها . والتربية الاسلامية التى تسترشد بما قام به هذا الصحابى الجليل تطالب الباحثين التربويين بالالتزام بمجمـوعة من القواعـد يأتـى من مقدمتهـا ضرورة التثبت من صدق الخبر قبل الأخذ به .

والسنة المطهرة هى المصدر الثانى للتربية الاسلامية . والسنة لغة الطريقة سواء كانت محمـودة أو مذمـومة . أمـا فى اصطـلاح الأصوليين فهى ما صدر عن الرسول عليه السلام من قول او فعل

او تقرير (٦) . ومكانة السنة النبوية فى التشريع الاسلامى حقيقة يقررها القرآن الكريم فى آيات عديدة منها قوله سبحانه وتعالى :

,,مَن يُطِعِ الرّسولَ فَقَدْ أطَاعَ الله ،، (٧).

,,وَما آتَاكُمْ الرّسُولُ فَخُذُوه وَمَا نَهَاكُمْ عَنْه فانْتَهوا،، (٨).

كما أنّ الرسول صلى الله عليه وَسَلّم أكد على اهمية السنة عندما قال :

,,ألا انى أوتيت القرآن ومثله معه ،، (٩).

ويعقب الشيخ ناصر الدين الألبانى على هذا الحديث فيقول انه يدل دلالة قاطعة عـلى أن الشريعة الاسلامية ليست قرآنـاً فقط بل هى قرآن وسنة (١٠) .

والسنة النبوية لها وظائف أساسية فى التربية الاسلامية ، فهـى توضح المعنى المجمـل الـذى ورد فى بعض الآيـات وتفسـر بعض المفردات القرآنية . وهذا ما يساعد الانسان المسلم على فهم كتاب الله.

فالسنة النبوية تشرح بعض المفردات القرآنية وتقربها الى الأذهان . ومن الأمثلة على ذلك أن الرسول صلـى الله عليـه وسلـم بيّـن أنّ المغضوب عليهم هم اليهود وأن الضالين هم النصارىٰ (١١) كما بيّن عليه السلام أنّ المقصود بالوسط فى قوله تعالى ,,وَكذَلِكَ جَعَلنَاكُم أمّةً وَسَطاً ،،(١٢) . هو العدل (١٣) وليس المتوسط الحسابى كما قد يتبادر الى الأذهان . وعندما نزل قوله تعالى :

,,الذين آمَنوا وَلَمْ يَلْبِسوا ايمانَهُمْ بِظلْمٍ اؤلئكَ لَهُمْ الأمْـنُ وَهُمْ مُهْتَدون ،، (١٤) .

فهم الصحابة رضوان الله عليهم الظلم على عمومه ، ولهذا قالوا للرسول صلى الله عليه وسلم: ,,أيّنا لا يلبس ايمانه بظلم؟،، فقال لهم المصطفى عليه السلام :

,,انه ليس بذاك انما هو الشرك . ألا تسمع الى قول لقمان لابنه ,,انّ **الشْركَ لَظُلْمٌ عَظيم** ،،(لقمان : ١٣) (١٥).

والسنة المطهرة لها وظيفة أساسية ثانية : انّه التطبيق العملى للمبادئ السامية التى جاء بها الوحى . ومن خصائص التطبيق العملى للمبدأ أنه يحول المفاهيم المجردة التى يصعب ادراكها الى واقع ملموس تدركه الحواس . فمفهوم الزهد ـ على سبيل المثال ـ يسهل فهمه عندما يقرأ المتعلم أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه دخل ذات يوم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجده على حصير وقد أثّر هذا الحصير فى جنبه ولا شيء فى الغرفة سوى قبعة من شعير وبعض الورق الذى يستعمل للدباغة وجلد معلق، فاغرورقت عينا عمر بن الخطاب.

وعندما استفسر الرسول صلى الله عليه وسلم عن سبب بكاء عمر أجابه قائلا :

,,يا نبى الله ومالى لا أبكى . وهذا الحصير قد أثّر فى جنبك وهذه خزانتك لا أرى فيها الا ما أرى ، وذاك كسرى وقيصر فى الثمار والأنهار وأنت نبى الله وصفوته وهذه خزانتك ،،

فقال النبى صلى الله عليه وسلم :

,,يا ابن الخطاب : أما ترضى أن تكون لنا الآخرة ولهم الدنيا،،(١٦)

فالرسول عليه الصلاة والسلام كان يلتزم التزاما كاملا بما يدعو اليه الاسلام، فلا فرق بين الواقع الذى يحياه والمثال الذى يدعو اليه . من هنا فان النموذج الذى يأتى به الرسول صلى الله عليه وسلم للمفهوم المجرد هو فى غاية الايضاح وليس مجرد وسيلة تعليمية تقرب المفهوم الى الأذهان . وكون السنة تطبيقا عمليا للمبادئ القرآنية ينجم عنه وضوح فى الطرق التربوية الموصلة الى تلك المبادئ السامية . فالقرآن الكريم بيّن لنا أن الرسول عليه افضل الصلاة والتسليم هو

القدوة الحسنة لنا ، ودليل ذلك قوله تعالى :

„ لَقَدْ كان لَكُمْ فى رَسُولِ اللهِ أُسوةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كان يرْجُو الله واليَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ الله كَثيرا„ (١٧) .

فالرسول صلى الله عليه وسلم كان أباً وما كان كل رسول أبا، وكان سياسيا وقائدا عسكريا ، وما كان كل رسول كذلك ، وقد بعث للناس كافة بينما لم يبعث رسول قط غيره الى الانسانية عامة . وصفات الرسول عليه السلام استوعبت كل جوانب الحياة بل انّ سيرته العطرة فى كل جانب من جوانب الحياة استوعبت سائر المواقف المتعلقة بذلك الجانب . ففى مجال الصبر ـ على سبيل المثال ـ شاء الله أنْ يقوم الرسول صلى الله عليه وسلم مقام من أبعد عن وطنه ومقام من مات له أولاد وأحفاد وزوجة وأبناء عم ومقام من هزم فى المعارك أو استهزئ به أو اتهم فى عرض أحب زوجاته اليه (١٨) .

والقدوة ليست الطريقة التربوية الوحيدة التى تقتبسها التربية من السنة المطهرة ، وذلك أن السنة تزودنا بطرق عديدة اتبعها الرسول عليه السلام منها التربية بالقصة وبالحادثة وبضرب الامثال ، كما أنه صلى الله عليه وسلم استخدم الوسائل التوضيحية . ومثال ذلك أنّه استخدم اصبعيه الكريمين عند الحديث عن مكانة كافل اليتيم كما أنه عليه السلام خط خطا واضحا بمثل الطريق السوى وخطوطا عديدة حوله تمثل طرق الشيطان التى يمكن أن يسير عليها الانسان المنحرف.

ولا مجال للشك فى أنّ الطرق التربوية التى اتبعها الهادى البشير وكان من ثمراتها خير أمة أخرجت للناس هى الطرق التى يجب أن تعتمد عليها التربية . وقد أخذ بعض المربين المسلمين المعاصرين يولون السنة النبوية مزيداً من الاهتمام عند البحث عن طرق التربية الواجب اتباعها وصنفت مؤلفات عديدة فى هذا المجال . وربما كان

خير مصنف فى هذا المجال كتاب **الرسول العربى المربى** للدكتور عبدالحميد الهاشمى . ويضم الكتاب اثنين وعشرين فصلا ، ومن الموضوعات الأساسية التى بحثها اضافة الى طرق التدريس المختلفة رعاية الرسول صلى الله عليه وسلم للأطفال والمرأة والعلاقة بين المربّى والمتعلم والتربية النبوية الاجتماعية للأفراد .

ومن المصنفات الاخرى التى كُرّست لابراز الجوانب التربوية فى السنة النبوية كتاب أسس **التربية الاسلامية فى السنة النبوية** للدكتور عبدالحميد الصيد الزنتانى ، وكتاب **فلسفة التربية الاسلامية فى الحديث الشريف** للدكتور عبدالجواد سيد بكر . ويعتبر مؤلف الكتاب الاول كتابه هذا محاولة جادة ومختلفة للكشف عن بعض كنوز السنة النبوية المخبوءة فى المجال التربوى وابراز مواقفَ السنة النبوية من المبادئ التى تدعو اليها التربية الحديثة . وأهم الموضوعات التى ناقشها المؤلف : التربية الجسمية والتربية الروحية والتربية العقلية والتربية الخلقية . ومع أنّ الكتاب كبير الحجم اذ يقع فى حدود تسع مأة صفحة الاّ أنّ المؤلف يرى أنّ السنة النبوية بحاجة الى دراسات اخرى كى يمكن اكتشاف كنوزها التربوية .

أما كتاب فلسفة التربية الاسلامية فهو فى الأصل رسالة دكتوراه تقدم بها المؤلف الى كلية التربية بطنطا . وأهم الموضوعات التى بحثها المؤلف فلسفة الحياة وفلسفة التربية كما تبدو فى الحديث الشريف ثم التربية الروحية والتربية العقلية والتربية الخلقية والتربية الجمالية والتربية الجسمية والتربية الاجتماعية . كما أفرد المؤلف فصلا لطرق التربية الاسلامية . ويشكر الباحث اختياره هذا الموضوع باعتبار أنّ السنة المطهرة كنز من كنوز التربية الاسلامية . بيد أننا نختلف مع الباحث فى قضية تبدو شكلية مع أنها ليست كذلك .

فالتربية الاسلامية لا تقوم على الفلسفة ولا توجد فلسفة تربوية اسلامية. ولو تضمن الحديث الشريف فلسفة لصح أنْ يطلق على المصطفى صلى الله عليه وسلم لفظ ,,فيلسوف،، وهذا أمر لم يقل به أحد من السلف الصالح رضوان الله عليهم .

والكون بكل ما فيه من كواكب ونجوم واشجار ورياح وانهار وبحار وجبال ونباتات ، مصدر آخر من مصادر التربية الاسلامية . وقد يبدو فى هذا القول شيءمن الغرابة وبخاصة عند اولئک الذين لا يوجد لديهم فهم صحيح لطبيعة الدين الاسلامى . فالله سبحانه وتعالى سمى هذه المخلوقات ,,آيات،، وهى التسمية التى تسمى بها كلام الله سبحانه وتعالى .

يقول الحق سبحانه وتعالى :

,,انّ فى اختِلافِ اللّيلِ والنّهارِ والفُلْکِ التى تَجْرِى فى البَحْرِ بما يَنْفَعُ النّاسَ وما أنْزلَ الله من السّمآء مِنْ مآءٍ فأحيا به الأرض بَعْدَ مَوْتِها وَبَثّ فيها مِنْ كُلّ دآبّةٍ وتَصْرِيفِ الرّياحِ والسّحابِ المُسَخّر بَيْنَ السّمآءِ والأرضِ لآياتٍ لِقومٍ يَعْقِلُون،، (١٩).

فهذه المخلوقات التى تحيط بنا غير منعزلة عن التربية الاسلامية ، ذلک أنّ ادراک حقيقة وجودها جزء لا يتجزأ من التربية الاسلامية . أمّا سبب ذلک فهى أنّها تدل دلالة بينة على وجود الله ووحدانيته (٢٠) . وحيث أن ما فى الكون آيات تدل على وحدانية الله فانّ الاسلام يحث على دراسة كل ما فيه دراسة موضوعية . ثم ان الاسلام يعتبر الكون مسخّراً للانسان ، ومبدأ التسخير هذا يسقط هالة القداسة التى ألبستها بعض الحضارات القديمة للطبيعة ويوجب على الانسان دراسة سبل استغلال ما فى الكون استغلالا ملائما . فالكون غنى بالمواد والطاقات

التى لا تستقيم حياة البشرية بدونها ، وما على الانسان الا تعلم الوسائل التى تعينه على ذلك . وما دام الأمر كذلك فان المنهاج فى التربية الاسلامية يحرص على توجيه الأفراد الى شكر الله الذى أودع فى الكون جميع ما يحتاج اليه الانسان فى حياته .

ونظرة الاسلام الى الكون من شأنها أنْ تولد الثقة والتفاؤل فى النفس وتبعد الانسان عن الخوف والقلق . فالله سبحانه وتعالى أوجد سننا تحكم هذا الكون . فالايمان بوجود الله خلق كل شىء بقدر وأحسن خلقه يبعد المرء عن الاعتقاد بعشوائية الأحداث الكونية . ولا مجال للاعتقاد بأنّ الطبيعة عدو للانسان يتربص به الدوائر ، كما أنه لا مجال للاعتقاد بأن الطبيعة أم رؤوم وأنها هى المربية الوحيدة للانسان . فهاتان النظريتان تتناقضان مع نظرة الاسلام . فالطبيعة ليست سيداً ولا عدواً لدوداً بل هى مخلوق مُسَخّر لخدمة الانسان اذا ما أحسن التعامل معها .

ومع أنّ الاسلام يحث الانسان على التفاعل مع ما يحيط به من مخلوقات الا أنه ينظر الى الانسان نظرة متفردة . صحيح أن الإسلام يقر بأن الانسان وسائر المخلوقات الحية الأخرى من ماء ، الا أنه يعتبر الانسان خليفة . ومبدأ الخلافة يوجب على التربية دراسة الانسان لمعرفة الخصائص التى أنعم الله بها عليه وجعلته ينفرد على سائر المخلوقات بما فيها الملائكة فالانسان آية من آيات الله التى لا تستغنى التربية الاسلامية عن دراستها لقوله سبحانه وتعالى :

,, وَفِيَ أَنفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُون ،، (٢١).

وعليه فان النفس الانسانية مصدر أساسى آخر من مصادر التربية الاسلامية . وجميع الصفات التى خص الله بها الانسان جعلته كائنا متفردا عما سواه من المخلوقات . وأفراد البشر ليسوا فى جوهرهم

حيوانات على ذرجة عالية من التعقيد كما تزعم بعض الاتجاهات المادية الحديثة . ويخرج المنهاج الدراسى عن خط التربية الاسلامية عندما تدرس نظرية داروين فى علم الاحياء على انها نظرية صحيحة مع أن الواقع خلاف ذلك ، كما يخرج المنهاج الدراسى فى الكليات التربوية عن التربية الاسلامية عندما يسلم بصحة النظريات النفسية التى اجرت تجاربها على الحيوانات ثم دعت الى تطبيق النتائج على بنى البشر . فعلماء النفس الذين درسوا ظاهرة التعليم وصاغوا نظرياته التى تفسر هذه الظاهرة ركزوا فى دراساتهم على السلوك الحيوانى . فاتجه ثور ندايک الى دراسة القطط وهى تحاول الخروج من صندوق صمم بطريقة معينة ، ودرس سكنر نظرية التعزيز من خلال الانفعال الصادر عن حمامة حبست فى قفص . وأجرى ,,بافلوف،، الروسى تجاربه فى التعلم الشرطى على الكلاب بينما أجرى علماء نفس مدرسة ,,الجشتالت ،، تجاربهم فى التعلم بالاستبصار على القردة. ولو راعى هؤلاء المنهج العلمى السليم لأجروا تجاربهم على عينة تمثل أولئک الذين عممت عليهم نتائج الدراسات . فمن يقول أنّ القط الذى تعلم عن طريق المحاولة والخطأ يمثل تمثيلا سليما تلاميذ المدارس ، بل من يقول ان ذلک القط يمثل سائر القطط الأخرى ؟ ان كل نظرية تقوم على اعتبار الانسان حيوانا أو متطورا عن حيوانات ترتكب خطيئة كبرىٰ فى حق الانسان . واذا كانت التربية الغربية الحديثة تطالب بمراعاة الفروق الفردية بين بنى البشر ، فمن غير المعقول التصديق بعدم وجود فروق أساسية بين الانسان والحيوان . والتربية الاسلامية التى تعتبر الانسان آية من آيات الله تهتم بالخصائص التى تمتاز بها الطبيعة الانسانية . وأبرز هذه الخصائص :

أولا : الانسان مفطور على الخير لأنّ الطّفل كما بين الحديث الشريف يولد على الفطرة . فعنصر الخير موجود أساسا فى النفس الانسانية . وهذه النظرة الى الانسان تختلف عن النظريات الأخرى التى تعتبر الانسان محاطا بالخطيئة منذ قدومه الى هذا العالم أو تلك التى تعتبره خَيّرا شرّيرا فى آن واحد. ان هذه النظرة الايجابية للانسان وللحياة الانسانية تجعل السلوك الانسانى يصدر من منابع صافية خالية من العقد والشوائب . والخالق الذى فطر الانسان على الخير وضع فيه دوافع فطرية قد تلح على صاحبها للخروج على الميثاق فيتجه من العبودية لله سبحانه وتعالى الى عبودية الأهواء والميول الذاتية . وعلينا أنْ نؤكد منذ البداية أنه لاتناقض بين هذه الدوافع وبين الفطرة ، اذ أنّ حكمة الله اقتضت وجود حاجات أساسية لابد من اشباعها . ووجودها لا يعتبر دليلا على كون الشر جزءا أصيلا فى النفس الانسانية ، ولكن الطريقة التى تشبع بها تلك الغرائز هى التى تجعل الانسان مسايرا للفطرة أو مخالفا لها . فكل ما أودعه الله سبحانه وتعالى فى الانسان له وظيفة معينة وهدف يتجه اليه . وما يقوم به الانسان وهو يسعى لاشباع هذا الدافع أو ذاك هو الذى يعطى قيمة لما يصدر عنه من سلوك .

ثانيا : الانسان خليفة والكون مسخّر له . والخليفة الذى يعمر الأرض وفق أوامر الله له أرادة تميزه عن غيره . وحرية الارادة هى التى جعلته مؤهلا لتحمل المسؤولية . يقول سبحانه وتعالى :

,,إنّا عَرْضنا الأمانَةَ عَلى السّمٰواتِ والأرضِ والجبالِ ، فأبْينَ أن يَحمِلنَها وأشفقْنَ مِنهَا وَحَمَلها الانسَانُ ،،(٢٢).

وعـليه فان الأنسـان فى التصـور الاسلامـى هو محـور الأحـداث التاريخية . أمـا الفلسفات المادية التى تعتبر وسائل الانتـاج أكثـر أهمية من الانسان فانها تحط من قدره وتجعله تابعا لها ، وهذا فرق أساسى بين التربية الاسلامية والتربية الماركسية . كمـا أنّ التـربية الاسلامية تختلف فى مفهومها عن التربية الديمقراطية التى تبالغ فى حرية الانسان بحيث تُحِلّه محل الإله . فحرية الانسان فى الاسلام تمتاز بوجود رباط قوى يربطها بالله سبحانه وتعالى . وهذا الرباط هو الذى يجعل الانسان يعتمد على الله فى كل عمل يقوم به فيتجه اليه قلبه . وهذا هو فى الواقـع حقيقـة التوكل على الله . فالانسان المسلم الذى يتوكل على الله حق توكله يأخذ بالأسباب ويعرف ربه ويربط قلبه بخالقه ثم لا يبالى بعد ذلك بنوعية النتائج التى يحصل عليها. انّه لايعلق الآمال على الأشياء أو على نفسه بل يربطها برب العالمين . من هنا يمكن القول ان الحرية فى الاسلام ترتبط ارتباطا وثيقا بالعبودية لله سبحانه وتعالى .

ثالثا: منح الله سبحانه وتعالى الانسان العقل وأعلى من شأن أولـى الألباب . والعقل هو القوة التى تمكن الانسان من فهم الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ومن اكتشاف السنن الموجـودة فى الكون وفى النفس والمجتمعات الانسانية . وبدون العقل يصبح التعلم واكتساب المعرفة من أى مصدر من مصادر المعرفة أمرا غير ممكن . فالعقل لا يستغنى عنه لفهم القرآن الكريم والحديث الشريف ، وحال من يدعو الى فهم الشريعة بمنأى عن العقل كحال من ينظر الى الشمس وهو مغمض العينين ، انه لايـرى النور الوضاء بل يتساوى حاله مع حال الأعمـى الذى لا يبصر شيئا . فالشريعة مع العقل نور على نور . ويرى العالم المسلم

علال الفاسى أن القرآن الكريم يؤكد هذه الحقيقة اذ يقول الله سبحانه وتعالى :

,,لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسلَنا بالبَيّناتِ وأَنْزَلْنَا مَعَهُم الكِتَابَ والمِيـزانَ لِيَقُوْمَ النّاسُ بِالْقِسْطِ ،،(٢٣).

فالميزان ـ حسبما يرى ـ هو العقل . ومعلوم أن القرآن الكريم لم يتضمن التفاصيل فكان لابد من فهم قواعده العـامة والحـاق الحالات الجزئية بها (٢٤) . ثم ان العلماء المسلميـن يجعلـون العقل مصدرا أوليا فيما لم يرد فى الكتاب والسـنة خاصة فى الأمور المتصلة بحياة الفرد والمجتمع فى شتى نواحى الحياة من اجتماعية واقتصادية وسياسية . ولهذا يرى شيخ الاسلام ابـن تيمية أن ما يتوصل اليه الانسان بعقله بصورة قطعية لا يرقى اليها أدنى شك لايمكن أن يتعارض بأى حال من الأحوال مع ما جاء فى الكتاب والسنة . فصحيح المنقول لا يمكن أن يتعارض مع صريح المعقول . أمّا الآراء العقلية التى تتعارض مع المبـادئ الصريحة التى جاءت بها الشريعة فهى آراء فاسدة يمكن للعقل اثبات بطلانها . فما يخالف الشريعة لابد وأن يكون فاسدا اذ لو لم يكن ذلك لجاء مطابقا لها (٢٥) . والقرآن الكريم يعطى العقل دورا أساسيا عندما يدعو الانسان الى تدبر آيات الله . يقول الله سبحانه وتعالى :

,,أفَلا يَتَدَبّرونَ القُرْآن أمْ عَلَى قُلُوبٍ أقْفَالُها ،، (٢٦).

فهذه الآية الكريمة وغيرها من الآيات تدل دلالة أكيدة على أن العقل الانسانى ضرورى وأنه لا يستغنى عنه لفهم القرآن الكريم .

وحيث انه لا غنى عن العقل عند البحث فى المصادر الالهية للتربية الاسلامية فمن باب : أولى أن يعطى دورا أكبر عند البحث فى المصادر الأخرى التى ترك له اكتشاف السنن التى تحكمها . فعالم الفيزياء أو النبات أو البحار يسترشد بالتوجيهات القرآنية التى تحثه على اتخاذ ما يصل اليه من حقائق وسيلة لتدعيم الايمان بالله سبحانه وتعالى ويلتزم بأخلاقيات العالم التى حُدِّدتْ قواعدها ومنها : التثبت من الحقائق التى يصل اليها والتزام الصدق والبعد عن السطحية . أما فيما عدا ذلك فانه يترك المجال لعقله ليعالج المشكلات أو الموضوعات التى تبحث بالطريقة التى يراها العقل مناسبة . فللعالم أن يبحث فى أى موضوع من الموضوعات المتصلة بالنفس الانسانية أو التاريخ أو الأشياء التى تقع فى هذا الكون أو الكائنات الحية من نباتات وحيوانات برية وبحرية. ودراسة النفس الانسانية ينجم عنها علم النفس وعلم الاجتماع وعلم التاريخ . ودراسة الكون تنجم عنها سائر العلوم الطبيعية. ونود التأكيد على عدة أمور تتعلق بتفاعل العقل مع الآيات الكونية والآيات النفسية منها .

أولا : يختلف الانسان فى طبيعته عن الكون الذى يحيط به ، كما أن المخلوقات تتباين فيما بينها ، فالجبال لها طبيعة تختلف عن الأسماك فى البحار وهكذا ، وعندما يتعامل العقل مع هذه المخلوقات فانه يختار الطريقة التى تلائم موضوع البحث . فالطريقة التى تتبع فى دراسة التاريخ الانسانى تختلف عن الطريقة التى يتبعها عالم طبقات الأرض أو عالم الكيمياء اذ أن لكل من هذه العلوم طريقته المتميزة . وعليه فانه لا يوجد طريقة علمية واحدة فى فروع العلم المختلفة . فالرياضى الذى يتعامل مع الرموز لا يسير فى طريقته العلمية كما يسير عالم النباتات

الذى يختبر اختبارا علميا مدى ملاءمة علاج معين لمرض معين . ولكن القاسم المشترك فى جميع هذه الحالات وجود العقل الذى يحرس الطريقة العلمية . فالعقل هو الأصل والاجراءات المتبعة فى هذا العلم أو ذاك هى الفرع . وهذه الحقيقة يجب التأكيد عليها فى هذا العصر الذى بات فيه الفرع أصلا والأصل فرعا .

ثانيا : الانسان المسلم مطالب بمعرفة الواقع كما هو بلا تزييف أو مبالغة ، لذا فانّ الدقة والأمانة العلمية خصلتان لاغنى عنهما عند التعامل مع ما يحيط بنا من أشياء . وعلينا أن نميز بين الحقائق التى يتوصل اليها العقل وبين اشباه الحقائق أو الحقائق المزيفة التى تنسب الى العقل . وكل ما يتوصل اليه العقل عند تعامله مع الأنفس والآفاق لايمكن أن يتعارض مع ما جاء فى القرآن الكريم وما صح من حديث المصطفى صلى الله عليه وسلم . من هنا فاننا نرفض كافة النظريات التى تصور الانسان وكأنه حلبة صراع بين قوى متعددة وتلك التى تنزله من كرسي الخلافة وتضعه فى مصاف القردة والقطط . وقد جاءت هذه الاخطاء نتيجة لخلل فى الطريقة التى اتبعت فى الدراسة لا نتيجة لاستعمال العقل . فعلماء التحليل النفسى ـ على سبيل المثال ـ توصلوا الى نظريات فى النفس الانسانية من دراسة عينات أفرادها منحرفون انحرافات نفسية واضحة . وحيث أن هؤلاء لايمثلون الأفراد الأسوياء فاننا لا نقبل بالنتائج التى توصلوا اليها . ورفض تلك النتائج لا يعنى وضع قيود على العقل ، اذ الحقيقة غير ذلك ، فالتسليم بالنتائج غير الصحيحة هو الذى يلحق الضرر بالعقل وينسب اليه ما لا علاقة له به .

ثالثا : يتساوى المسلم وغير المسلم فى النظر فيما يحيط به من مخلوقات . فالكون مفتوح للجميع وهو كتاب لم تكتب فصوله كاملة ، بل ان الانسان يضيف الى ذلك الكتاب ما يتوصل اليه بعقله . ومن الملاحظ أن غير المسلمين قد تفوقوا على المسلمين هذه الأيام فى هذا المجال، ولا أدل على ذلك من أن الأقطار الاسلامية تعتمد على المنجزات الغربية والشرقية على حد سواء فى مجال التقدم التقنى . وهذا التخلف من جانب المسلمين لا علاقة له بالدين اذ أنّ ديننا لا يمنعنا من البحث فى أى مجالات البحث العلمى . بل ان العكس هو الصحيح . وهذا ما يفسره قيادة المسلمين للتقدم العلمى عندما تعاملوا مع الشريعة تعاملا ينبثق عن عقيدتهم . لذا فان التربية الاسلامية مطالبة بأن تَبُثّ الأمل فى النفوس و أن تسهم فى تقدم المسلمين تقدما علميا ، فالأمة الوسط فى العقيدة يجب أن تكون كذلك فى مجال العلوم الطبيعية والعلوم النفسية .

رابعا : الحقائق العلمية المتعلقة بالأشياء وبالكائنات الحية واحدة لاتتغير . فالطبيب المسلم وغير المسلم يعرف دقائق الطريقة التى يعمل بها القلب ، لكن ما يميز العالم المسلم أنه يتخذ الحقائق التى يعرفها أو يكتشفها وسيلة لتدعيم الايمان بالله . فمعرفة الأشياء كما هى عليه قضية يتساوى فيها المؤمن وغير المؤمن اذا ما كانا متكافئين من حيث القدرات العقلية والجهد المبذول . لكن ما يتميز به العالم المسلم أنّه يجعل حقائق عالم الشهادة منطلقه الى توثيق الصلات بربه والعقل بهذا المعنى لا يوجد إلا عند الانسان المسلم . ودليل ذلك أن القرآن الكريم ينفى وجود العقل عند الكفار لقوله تعالى :

,,لَهُمْ قُلوبٌ لا يَفْقَهون بها وَلهُمْ أعْيُنٌ لا يُبْصِرون بها وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِها . أولئِكَ كَالأنعَامِ بَلْ هُمْ أضَلّ ،، (٢٧).

فالعقل عن الله بمعنى أن يدرك الإنسان أن الله خالق الكون وأن كل مافى الكون آية تشهد على وجوده ووحدانيته خاصية لا يتصف بها إلا الإنسان المسلم . وقد بيّن هذه القضية الحارث المحاسبى ـ وهو من علماء القرن الثالث للهجرة ـ فى كتابه مائية العقل حيث يقول :

,,قلت : فمتى يسمى الرجل عاقلا عن الله تعالى ؟

قال : اذا كان مؤمنا خائفا من الله عزوجل ، والدليل على ذلك أن يكون قائما بأمر الله الذى أوجب عليه القيام به مجانبا لما كره ونهاه عنه . فاذا كان كذلك استحق أن يسمى عاقلا عن الله . بل لأنه لا يسمى عاقلا عن الله من يعزم على القيام بسخطه فأقام على ذلك مصرا غير تائب ،، (٢٨).

فالإنسان العاقل هو الذى يعرف ربه ويدرك حكمته فى آثار صنعته إنه يوقن أن قدرة الله نافذة وأن حكمته كاملة ويستدل من المخلوقات التى يشاهدها أنه لا اله الا الله ولا رب سواه . أما الذى يدرك الأشياء التى خلقها ثم يقف عند هذا الحد ولا يفكر فى خالقها أو ذاك الذى يدرك الحقيقة كاملة ثم يعرض عنها لسبب أو لآخر فلا يستحق أن يسمى عاقلا . ولهذا السبب نفى الخالق سبحانه وتعالى صفة ,,العقل،، عن اليهود لانهم يحرفون الحقائق ويزيفونها مع أنهم عقلوها ، ومصداق ذلك قوله تعالى :

,,وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُم يَسْمَعُون كَلاَمَ الله ثُمّ يُحَرِّفُونَه مِنْ بَعْدِما عَقَلوُه وَهُمْ يَعْلَمونَ ،، (٢٩).

لقد أبرزت الدراسة الحالية حقيقة أساسية لا يجوز اغفالها وهى أن محتوى المنهاج فى المعاهد التربوية الاسلامية كافة يجب أنْ يخلو

من التناقض أو الصراع بين العلوم الالٰهية من جهة والعلوم الكونية والعلوم الاجتماعية والنفسية من جهة أخرى . وهذا التكامل يحتم على كليات الدعوة وأصول الدين فى العالم الاسلامى أنْ تُضَمّن محتوى المنهاج المقرر مساقات فى علم النفس والتربية وعلم الاجتماع . فالداعية لايكون مؤثرا مالم يكن على بينة فيما يتعلق بالعوامل النفسية التى تؤثر فى الاقناع وتلك التى يتبعها أعداء الاسلام فى ميدان الحرب النفسية . وكل داعية يذهب الى مجتمع معاصر مطالب بأن يكون على بصيرة بالعادات والتقاليد لذلك المجتمع والقوى الفاعلة فيه . وفى المقابل فان الكليات والمعاهد العلمية التى تهتم بالتخصصات العلمية الحديثة بحاجة اكيدة لان تضمن منهاجها مساقات فى الثقافة الاسلامية تضفى على الدارسين سمات ايمانية وتجعل كلا منهم حريصا على ان يربط علمه بالله سبحانه وتعالى .

على المربين المسلمين فى كل قطر من الاقطار الاسلامية ان يوثقوا الصلة بين آيات الله فى كتابه العزيز وبين آياته فى الكون والنفس الانسانية . فالعلاقة بين هذه وتلك كالعلاقة بين الذراع التى تحرك العجلة وبين العجلة ذاتها . فتقدم التربية الاسلامية والمجتمعات الاسلامية بأسرها يعتمد على التناسق بين هذين الجناحين للمعرفة : المعرفة الخالدة والمعرفة المكتسبة .

هوامش

١ ـ صبحى الصالح : مباحث فى علوم القرآن ، ص ٢١ .
٢ ـ عبدالرحمن النحلاوى : اصول التربية الاسلامية وأساليبها ، ص ٨٣ .
٣ ـ آل عمران : ١٩٠ ـ ١٩١.
٤ ـ البخارى : صحيح البخارى ، ج ٦ ، ص ٩٨.
٥ـ محمد سالم محيسن : تاريخ القرآن الكريم ، ص ١٣٧.

٦ ـ عبدالغنى عبدالخالق : حجية السنة ، ص ٦٨.
٧ـ النساء : ٨ .
٨ ـ الحشر : ٧.
٩ ـ رواه ابو داود والترمذى واستشهد به مؤلف كتاب حجية السنة ، ص ٢٨٠.
١٠ ـ منزلة السنة فى الاسلام ، ص ١٠.
١١ ـ الترمذى : سنن الترمذى ، ج ٤ ، ص ٢٧٢ .
١٢ ـ البقرة : ١٤٣.
١٣ ـ الترمذى : مصدر سابق ، ص ٢٧٥.
١٤ـ الانعام : ٨٢ .
١٥ـ البخارى : صحيح البخارى ، ج ٦ ، ص ٢٠.
١٦ـ ابن ماجه : سنن ابن ماجه ، كتاب الزهد ، ج ٢ ، ص ١٣٩١ .
١٧ ـ الاحزاب : ٢١ .
١٨ـ سعيد حوى : الرسول صلى الله عليه وسلم ، ج ١ ، ص ١٣٣ ـ ١٣٤.
١٩ ـ البقرة : ١٦٤.
٢٠ ـ محمد على الصابونى ، مختصر تفسير ابن كثير ، ج ١ ، ص ١٥٧.
٢١ ـ الذاريات : ٢١ .
٢٢ ـ الاحزاب : ٧٢ .
٢٣ ـ الحديد : ٢٥.
٢٤ ـ علال الفاسى : دفاع عن الشريعة ، ص ١٤٩ ـ ١٥٠.
٢٥ـ ابن تميمة : درء تعارض العقل والنقل ، ص ١٥٦.
٢٦ ـ محمد : ٢٤.
٢٧ ـ الاعراف : ١٧٩.
٢٨ ـ المحاسبى : العقل وفهم القرآن ، ص ٢١٨ ـ ٢١٩ .
٢٩ ـ البقرة : ٧٥.

مصادر البحث

١ ـ القرآن الكريم .
٢ ـ ابن تيمية ، احمد بن عبدالحليم الحرّانى، درء تعارض العقل والنقل / تحقيق محمد رشاد سالم ، القاهرة : دار الكتب ، ١٩٧١م ، ص ٤١٧.
٣ ـ ابن ماجة ، أبو عبدالله محمد بن يزيد القزوينى ، سنن ابن ماجة / تحقيق محمد فؤاد عبدالباقى ، جزءآن .
٤ ـ الألبانى ، محمد ناصر الدين ، منزلة السنة فى الاسلام ، ط ٣ ،الكويت : الدار السلفية ، ١٤٠٠ هـ ص ١٦ .
٥ ـ البخارى ، أبو عبدالله محمد بن اسماعيل ، صحيح البخارى ، بيروت : دار الفكر ، ١٤٠١ هـ ، (٨) أجزاء فى (٤) مجلدات .

٦ ـ الترمذى ، ابو عيسى محمد بن عيسى ، سنن الترمذى / تحقيق عبدالوهاب عبداللطيف ، ط ٢ . ـ بيروت : دار الفكـــر ، ١٤٠٣هـ ، (٥) أجزاء .

٧ـ سعيد حوّى ، الرسول صلى الله عليه وسلم ، ط ٢ ، ١٣٩١هـ ـ ١٩٧١م ، جزءآن .

٨ ـ صبحى الصالح ، مباحث فى علوم القرآن، ط ١٤، بيروت : دار العلوم للملايين ، ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م ، ص ٣٨١ .

٩ ـ عبدالجواد سيد بكر ، فلسفة التربية الاسلامية فى الحديث الشريف ، القاهرة : دار الفكر العربى ، ١٩٨٣م ـ ص ٤٤٢ .

١٠ ـ عبدالحميد الزنتانى ، أسس التربية الاسلامية فى السنة النبوية ، ليبيا : الدار العربية للكتاب ، ١٩٨٤م ، ص ٩١٧ .

١١ ـ عبدالحميد الهاشمى ، الرسول العربى المربى ، دمشق : دار الثقافة للجميع ، ١٤٠١ هـ ، ص ٤٨٠ .

١٢ ـ عبدالغنى عبدالخالق ، حجية السنة ، واشنطن : المعهد العالمى للفكر ,,الاسلامى،، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٦م ، ص ٥٩٨ .

١٣ ـ علال الفاسى ، دفاع عن الشريعة ، ط ٢ ، بيروت : منشورات العصر الحديث ، ١٩٧٢م ، ص ٣٠٦ .

١٤ ـ المحاسبى ، الحارث بن أسد ، العقل وفهم القرآن ، تحقيق حسين القوتلى ، بيروت : دار الفكر ، ١٣٩٨ هـ ـ ١٩٧٨م ، ص ٥٣١ .

١٥ ـ محمد سالم محيسن ، تاريخ القرآن الكريم ، مكة المكرمة : رابطة العالم الاسلامى ، ١٤٠٢هـ ، ص ١٦٤ .

١٦ ـ محمد على الصابونى ، مختصر تفسير ابن كثير ، بيروت : دار القرآن الكريم ، ١٤٠٢ هـ ، (٣) أجزاء .

١٧ ـ النحلاوى ، عبدالرحمن ، أصول التربية الاسلامية وأساليبها فى البيت والمدرسة والمجتمع ، دمشق : دار الفكر ، ١٩٧٩م ، ص ٢٧٢ .